

تاريخ النشر: 2025/06/01 تاريخ القبول: 2025/04/23 تاريخ الاستلام: 2024/12/18

الإحياء للغزالي في الشعر الأخلاقي الزيناني

✍ سيدي عبد الرحيم مولاي البودخيلي
Abderrahim.moulayalboudkhili@univ-tlemcen.dz
جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان / الجزائر

Al-Ghazali's Revival of Zayyani Ethical Poetry

✍ Sidi Abderrahim MOULAY ALBOUDKHILI
Abderrahim.moulayalboudkhili@univ-tlemcen.dz
University of Abu Bakr Belkaid - Tlemcen / Algeria

ملخص البحث

عثرنا على شعر عربي قديم مغمور لعهد يسمى العصر الزياني (638هـ/962م)، حيث ذاع صيت شعراء وصلوا منظوماتهم الشعرية نزوعاً خلقياً شابه نزوعاً دينياً بل صوفياً قد تأصل باعثاً دافعاً وغرضاً موضوعاً وغاية هدفاً، كل في نظرية إحياء علوم الدين للغزالي وفي مصنفه أيضاً الموسوم الميزان بخاصة. ونحن في هذا المقال رمنا التعريف ببعض شعر هذا العصر وشعرائه ومذاهبهم الخلقية، على أن ما هو بمكان وحاجة هو ظلال نظرية إحياء علوم الدين للغزالي أبي حامد في رسم منحنى خلقي مسحته طابعها ديني صوفي كل ذلك في شعر العصر الزياني. الكلمات المفتاحية: القيم؛ الدين؛ الشعر؛ الأخلاق؛ العصر الزياني.

ABSTRACT:

We found an ancient obscure Arabic poetry of an era called the Ziyani era (638 AH/962 AH), where the fame of their poetic systems spread, and their moral tendency was mixed with a religious tendency, even a Sufi tendency, which was rooted as a motivating motive, a subject matter, and a goal ; each in the theory of the revival of the religious sciences and its book Al-Mizan in particular.

In this article, we aimed to introduce some of the poetry of this era, its poets, and their moral doctrine, although what is in place and need is the shadows of the theory of the revival of the religious sciences of Al-Ghazali Abu Hamid in drawing a moral trend that was marked by its religious Sufi character, all of that in the poetry of the Ziyani Era.

Keywords: Values; Religion; Poetry; Ethics; Ziyani Era.

1. مقدمة:

لم تعد النزعة الأخلاقية مرتبطة بالذات والنفس والطبيعة والفن والفلسفة والحضارة والشعر والنقد والدين والعلم فحسب، وإنما تمت في طبيعتها بصلة وثيقة إلى منحنى نخبة هضمت ما تقدم من علوم وأبدعت في ما لم يبدع فيه السابقون قط، ووسمت الأخلاق ببصمات صوفية نزع إليها الكثير منهم أبو حامد الغزالي (ت. 505هـ) الذي حدد ماهية النزعة الأخلاقية تحديدا دقيقا فأخذ بالشرع وعزز بالعقل وأنكر ونهى عما انتفى مع النقل والعقل وذم المذموم من الأخلاق؛ قال: «اتخذ العقل والشرع وبين الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا»⁽¹⁾.

ويلزمنا التأكيد بادئ الأمر على أن شعر النزعة الأخلاقية للعصر الزيناني، لم يكن بمعزل عن تضمينه من الفكر الإنساني وقرطاسه، حتى لقد كان الفكر الإسلامي محطة من محطاته، وميدانا خصبا لا يقل شأوه حضورا عن قرب وعن بعد في موضوعنا، ولقد لزم أن يتعلق الأمر بين الأخذ والمأخوذ منه، فيشترك كلاهما في منزع خلقي، فيتأثر الشاعر الزيناني بفاعل الاعتقاد وغاياته وسبله، وقد يحدث الأخذ والعطاء بحسب القرب والبعد والرحلة والقراءة بالمثل، ولهو فكر ترومه لغة أقلام مفكرين وعلماء تقدموا زمانا عصر الزينانيين، ونظروا إلى الأخلاق ومكارمها، وأسسوا لبنانيها وغاياتها وسبلها، فكادوا يكفوننا نثرهم الخلقي على اختلاف منازلهم، ويدلوننا بدقة وعمق على ماهية النزعة الأخلاقية أصولا وقواعدا وأهدافا.

2. وشائج بين الإحياء والشعر الزيناني:

نظرا إلى وفرة وافرة من التراث الفكري الذي له علاقة بموضوعنا، لا نجزم في التعليل على ذلك من نظرة أحادية تنطبق على مجموعه، إنما القصد لدينا في هذه الدراسة هو الاستشهاد بأنموذج واحد من نصوص تدل على حسن الخلق أو الخلق الحسن.

وليس مستبعدا أن يتهافت الشاعر في العصر الزيناني على الأخذ من نثر عربي نزعتة خلقية، والأبعد من ذلك هو أنها استوت لأخلاق الصوفية، وأضحى ينهل منها الشاعر موضوع الأخلاق، فيفكر بفكرهم الخلقي، ويلفظ به، ويهوى هواهم خيرا نفعا وعملا مخلصا واعتقادا صادقا وصبرا تقى.

ونحن في مقام من هذه الدراسة لسنا في حاجة سوى أن نعرض بالشرح والتعليق على نصوص نثرية للإمام الحجة أبي حامد الغزالي (ت. 505هـ)، وهي نماذج قد تغنينا التضمين من النثر العربي في شعر

النزعة الأخلاقية، وتمنحنا صورة أوضح عن وشيجة الفكر الإسلامي إلى بعضه بعض على وجه من الخصوص والاعتبار.

ويضيق موضوع بحثنا في نثر الغزالي الذي أثار فيه قضايا خلقية شتى، وركز منها على الخير والعمل والاعتقاد والصدق والإخلاص والصبر والتوكل، فطفحت معاني خلقية تسبح في أفق معرفي وفكر صوفي إلى حد ما؛ قال الدكتور زكي مبارك: «كلمة أخلاق وجدت قبل الغزالي، ففي الحديث شريف: {بعثت لأتمم مكارم الأخلاق} والذي يعني الآن هو تحديد علم الأخلاق كما فهمه الغزالي وإنما يفهم من علم الأخلاق شرح طرائق السلوك، وفقا لما سنته الشريعة السمحة، ورسمه الصوفية، ومن هنا نحو من الفقهاء: ولعلم الأخلاق فيما يريد أسماء متعددة علم طريق الآخرة وعلم صفات القلب وأسرار معاملات الدين وأخلاق الأبرار وأهم كتبه في الأخلاق نجده سماه إحياء علوم الدين، فعلم الأخلاق عنده هو تكيف النفس وردّها إلى ما رسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء الإسلام، ومن سبقهم من الأنبياء، والصديقين، والشهداء فإنما نجد الغزالي يؤكد أبحاثه بكلام ابن أدهم والتستري والمحاسبي ومن إلهم من الصوفية وربما نقل عن عيسى، وموسى، وداود، ومن إلهم من الأنبياء»⁽²⁾، وقد عرف الخلق الحسن في كتابه الميزان؛ فقال: «وأما حسن الخلق فبائن يزيل جميع العادات السيئة التي عرف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيتجنبها كما يتجنب المستقذرات، وأن يتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها فيؤثرها وينعم بها»⁽³⁾.

1-2. الخير في الاعتقاد:

وأما الخير في نظره فهو عمل بثلاث: انتهاء عن حرام وجوبا، ووجوبا لحلال التزاما، وما عدا هما فمباح؛ قال: «حرام، وواجب ومباح، وأما الحرام فهو المقول فيه: أتركوه ولا تفعلوه. أما الواجب فهو المقول فيه: افعلوه ولا تتركوه. وأما المباح فهو المقول فيه: إن شئتم فافعلوه، وإن شئتم فاتركوه»⁽⁴⁾. والخير كذلك عند الغزالي زنته، وزينته الشرع والعقل، قال في معناه: «هو أن يتيسر عليك بذل ما يقتضي الشرع والعقل بذله عن طوع ورغبة، ويتيسر عليك إمساك ما يقتضي الشرع والعقل إمساكه عن طوع ورغبة»⁽⁵⁾. والخير في الاعتقاد غير الخير في العمل. لأن خير الاعتقاد هو ثواب عن خطئ لا عقاب عن معصية، يقول في نص مطول ما منه معناه: «إذا حكم قلب المفنى بإيجاب شيء، وكان مخطئا فيه، صار مثابا عليه، بل من ظن أنه تطهر، فعليه أن يصلي. فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله، فإن تذكر ثم تركه معاقبا عليه، ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته، لم يعص بوطئها، وإن كانت أجنبية فإن ظن أنها أجنبية، ثم وطئها، عصى بوطئها وإن كانت زوجته»⁽⁶⁾.

وقد شارك إبراهيم التازي شعراء عصره في نزعة أخلاقية دينية ارتبطت بذاته حيناً، كما ارتبطت بمجتمعه حيناً آخر اللهم إنه في تصوير نزعته هذه دعت الضرورة الدينية وظروف حياته وسط مجتمع

متباين النوازع الخلقية، ولذلك نهج الشاعر منهج سابقه من الشعراء إثر حثه على التحلي بالأخلاق الفاضلة وهذا باستعمال التعليم والنصح والإرشاد وتوجيه المجتمع توجيهها خلقيا دينيا؛ قال:

إِنْ شِئْتَ عَيْشًا نَعِيمًا وَاتَّبَاعَ هُدًى ❀ فَاسْمَعْ مَقَالَ وَكُنْ بِاللَّهِ مُعْتَصِدًا⁽⁷⁾

ويربط التازي تخلق الإنسان بالدين، وحرى بالمتأدب في نظره من يصحح توبته إلى الله، ما دام يؤدي واجبه بالتأدب أمام ملكه، أي إنه يطيع الله طاعة المخلوق لخالقه ويتأدب معه أكثر من أن يتأدب مع حاكمه الذي يطيعه طاعة محكوم لحاكم من جنسه، وفي حث الشاعر على التخلق بالخلق الحسن والتأدب مع الله والتوبة إليه؛ قال:

فَرُزْ وَتَأَدَّبْ بَعْدَ تَصْحِيحِ تَوْبَةٍ ❀ تَأَدَّبْ مَمْلُوكٍ مَعَ الْمَلِكِ الْحَرِّ⁽⁸⁾

وإذا كانت طبيعة النزعة الخلقية في الشعر الزيناني أغلبها ديني، فإن الشعراء لم يكتفوا بالدعاء والتضرع لله بذكر صفاته الجليلة، وإكرامه تعالى خلقه بالمكارم، بل ربطوا نزعاتهم الخلقية بما أثروه عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه وتابعيه، كما اقتدوا بأخلاق معلمهم وانصرفوا في احتفالاتهم بالمولد النبوي الشريف إلى نظم كثير من القصائد المولدية، يشيدون فيها بمكارم الأخلاق وفضائلها التي أنار بها المصطفى على البرية قاطبة، وقد أنشد أغلب الشعراء في ذلك ممن ذكرناهم جلهم في هذه الدراسة من أولها إلى فترة اختص فيها الشعراء بكثرة النظم في مدح النبي ﷺ على عهد الملك الزيناني العادل بمثل ما وصفته المصادر والكتب القديمة، حيث أقر أبو حمو الثاني الاحتفال بمولد النبي ﷺ في كل عام يجلس فيه العلماء ومنهم الشعراء ينظمون غرر القصائد في مدح الرسول ﷺ سميت المولديات، جادت في خلالها قرائح الشعراء بذكر أفضل الشيم والصفات والخصائل لأفضل البرية والخلق؛ نورد من مضمون هذا النوع شعرا لمحمد بن يوسف القيسي الذي مدح الرسول ﷺ ذاكرة بعضا من صفاته الفاضلة إحسانا وجودا وصدقا وحلما وعزا، ركزها الهداية والتقوى؛ قال:

جُودٌ وَإِحْسَانٌ وَصِدْقٌ فِي الْهُدَى ❀ حُسْنٌ وَعَقْدٌ فِي التَّقَى مُسْتَحْكَمٌ
الْجِلْمُ أَوْسَعُ وَالْجَنَابُ مُؤَمَّلٌ ❀ وَالْعِزُّ أَمْنَعُ وَالسَّجِيَّةُ أَكْرَمُ⁽⁹⁾

ومما حفظته لنا المصادر "... من ولد عقبة بن نافع الفهري عالم... من أئمة اللسان والأدب ذو بصر بالوثائق وكتب الرسائل عند الملوك الأوائل من بني يغمراسن بن زيان وولي قضاء بلده"⁽¹⁰⁾، الشاعر محمد بن منصور بن هدية (ت.735هـ) يشرف على السبعين من عمره ويبيدي تودده لله ليرحمه، ويكفر له خطايا، ويعفو عنه ما اقترفه من ذنوب في حياته المهنية السياسية بخاصة، وحيث أقر بما بدر عنه من سلوك، فهو ينصرف إلى نزعة أخلاقية يشيد فيها بمعان الرفق واللين والصفح والعفو عند الرحمة؛ قال في معرض الزهد:

إِلَهِي مَضَتْ لِلْعُمْرِ سَبْعُونَ حِجَّةً ❀ مَنِيتُ بِهَا مِمَّا جَنَّتُهُ الدَّوَاهِيَا
وَعَبْدُكَ قَدْ أَمْسَى رَهِينَ ذُنُوبِهِ ❀ فَجِدْ لِي بِرَحْمِي مِنْكَ تَعْمُ الدَّوَاهِيَا⁽¹¹⁾

مجلة: لغة - كلام، المجلد 11/ العدد: 02 - جوان (2025)

2-2. الخير في العمل:

وأهم الشعراء الذين خاضوا في المدح النبوي والزهد، قد ربطوا بين الدين وبين القيم الخلقية في الشعر، واكتسبوا الحكمة والخبرة بعد تجربة عميقة في الحياة، واتصلوا عن كثب بمجتمعهم في شعر يدعو إلى التحلي بالخلق الحسن، وممن تذكره لنا المصادر الشاعر ابن ميمون القلعي (ت. 673هـ)، نزع كغيره من شعراء عصره إلى النصيح والإرشاد والإصلاح والتهديب والتوجيه من منطلق ديني وخلقى معاً، حيث ربط الشاعر بين الإخلاص في العمل والسخاء في الجود وبين قدر محتوم لكل امرئ في ذلك، ثم يسأل الشاعر المرء عن تعجب، ويدعوه إلى الاعتبار بأخلاق البائدة من الخلق وهو مزود في ذلك بكل فطنة وكياسة ولباب؛ قال في هذا الشأن:

إِعْمَلْ لِأُخْرَى وَلَا تَبْخَلْ بِمَكْرَمَةٍ ❁ فَكُلْ شَيْءٍ عَلَى حَدٍّ إِلَى قَدَرٍ
أَنْظُرْ لِمَنْ بَادَ تَنْظُرُ آيَةً عَجَبًا ❁ وَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَالْعِبَرِ⁽¹²⁾

والشاعر يلتزم في نزعه الأخلاقية بالوازع الديني في توحيد الله وذكره، وهو يشير في ذلك إلى أخلاق منها الحب الإلهي وإكرام الله وهو يذكره بإنصافه وحمانيته، وتشريفه وتعزيزه بالمحبة، حيث يقول في قصيدة تدل على زهد صاحبها وورعه وتصوفه:

حُسَامِي وَمَنْهَاجِي الْقَوِيمِ وَشَرْعِي ❁ وَمَنْجَايَ فِي الدَّارَيْنِ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ
مَحَبَّةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَذِكْرُهُ ❁ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِي بِقَلْبِي وَلَهْجَتِي
وَأَفْضَلُ أَعْمَالِ الْفَقَى ذِكْرُ رَبِّهِ ❁ فَكُنْ ذَاكِراً يَذْكُرُكَ بَارِي الْبَرِّيَّةِ⁽¹³⁾

2-3. الصدق والصبر:

يرتبط الوازع الديني بالشاعر محمد المقرئ الذي وظف خصالاً حميدة لغير ذاتها، بل ربطها بذاته معبراً عن نزعة أخلاقية ذاتية حيث اهتدى في شعره إلى التعبير عن انصرافه عن الهوى والتعلق بالصبر والصدق وقد استهجن السوى أو الهوى مُبدئاً نقاء وطهره منه؛ فقال:

رَفَضْتُ السَّوَى وَهُوَ الطَّهَارَةُ عِنْدَمَا ❁ تَلَفَعْتُ فِي مِرْطِ الْهَوَى وَزِينَتِي⁽¹⁴⁾

فالشاعر يقابل بين السوى والهوى ومعناه ما تصبو إليه النفس في تلبية أهواءها ونزواتها وميولها الغريزية وبين الهوى زينته الذي يقصد به معنى روحيا هو الحب الديني بمحبة الله ورسوله ومن كان على سنته، ويربط الشاعر بين هذه الخصلة التي تفانى في تحصيلها وبين شيمة الصبر على حاله دون أن يصح بالمقصود في توظيف هذه الخلقة إنما اكتفى بالتدليل على قوة صبره فيما هو عليه من مقام؛ قال:

وَإِنِّي عَلَى صَبْرِي كَمَا أَنْتَ وَاصِفٌ ❁ وَحَالِي أَقْوَى الْقَائِمِينَ بِحُجَّةٍ⁽¹⁵⁾

ويعرض المقرري إلى خلة الصبر في سياق آخر يدل فيه على علاقتها بقضية ترتبط ببعض من مجتمع عصره وهي الفقر، وإن كان لا يقصد أصلاً إلى الفقر في المال والولد والزاد الدنيوي، بل يقصد إلى معنى ديني روحي، وهو الفقر في إدراك ما يرتضيه الله تعالى لعباده من أسرار يودعها إليهم علومها ومعارف شذ من يدركها من الناس إلا القليل منهم من تلفع في مرط الهوى زينة له كما قال المقرري في إشارته إلى الصبر على حاله، ومبيناً شكره على ما كسبه من قوة صبر وفقر بديلين للغنى، كما يوحى في ذلك بقناعته والإيمان بقضاء الله وقدره المكتوب المقسوم على عباده، والشاعر فيما يومئ إليه يدعونا إلى التحلي بالصبر والقناعة والتوبة معاً؛ قال:

وَفَقَّرِي مَعَ الصَّبْرِ اصْطَفَيْتُ عَلَى الْغِنَى ❀ مَعَ الشُّكْرِ إِذَا لَمْ يُحْظَ فِيهِ مَثُوبَتِي⁽¹⁶⁾

ولعل نزعة محمد المقرري هذه قد دفعت به إلى تأسيس خصلة الصدق على عيار ديني صرف يربط إثره الخصلة بسلوك ديني هو التوبة، وهي كلمة كثيراً ما يلجأ إلى توظيفها في شعره ويدلنا أنه مهما اكتسب من خلال محمود طيلة حياته، ورغم تجاربه وخبراته فإنه فضل لنفسه خلة هي الأنسب والأليق به في كل حال ومقام، وهي صدق التوبة؛ قال:

وَلَوْ لَمْ يُحَدِّدْ عَهْدَ عَقْدِ خَلَّةٍ ❀ قَضَيْتُ وَلَمْ يَقْضِ الْمُنَى صِدْقَ تَوْبَةٍ⁽¹⁷⁾

ومما نؤكدده للشاعر البرنسي في نزعة أخلاقية دينية صرفة في الشعر من قصيدة تزخر بمعاني خلقية سامية سم ونفس تستثيرها دوافع دينية دائماً وأبداً، وهي خلال تدل على الإيمان المطلق بالله عز وجل وعلا⁽¹⁸⁾، وهو الرزاق الوهاب المعين عبده الضعيف بمحاسن الأخلاق، لأنه تعالى من يسوق الإنسان إلى الهداية لا يضل أحداً بفضل الكريم، بل تطمئن القلوب عن يقين بفضل ومنه وكثرة أفضاله وجوده وسخائه لا ينضب مطلقاً، وهي أفضال يجود بها الله تعالى حين يكسب المرء ومنهم الشاعر يجني معرفة كنوز الحقيقة علومها تفرد بها تعالى وتزده بها أيضاً عن عباده وتلك الحقيقة لا يزنها بحر يدل على جزء منها، ويخفى عنه تبيان أغلب وجوهاً وصورها وهي الحقيقة التي سلبت قلب الشاعر، فأفضت به إلى عزلة الناس جميعهم والتوق عن لظى إلى رؤيتها بالبصيرة، ويمكننا أن نتبين هذه النزعة الخلقية الدينية في شعر البرنسي الذي طرق فيه شيما من مثل الإعانة والإحسان، والفضل والمن، والجود ودوامه، والعلم بلا جهل، والمحبة نورا، والرفع والتقدير؛ قال البرنسي في ذلك:

بَدَأْتُ بِسْمِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ ❀	طَلَبْتُ مِنَ الْوَهَّابِ حُسْنَ الْإِعَانَةِ
فَسُبْحَانَ مَنْ يَهْدِي الْعِبَادَ بِفَضْلِهِ ❀	وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ الْقُلُوبِ بِمِنَّةٍ
وَيَنْعَمُ بِالْأَفْضَالِ وَالْجُودِ دَائِمًا ❀	وَيَرْمِي بِمَوْجٍ مِنْ عُلُومِ الْحَقِيقَةِ
وَلَيْسَ يَقْسُ الْبَحْرُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا ❀	وَلَكِنْ بِفَضْلِ اللَّهِ تَسْلُكُ سَفِينَتِي
سَفِينَتُنَا يَا ذَا لَنْ كُنْتَ عَاقِلًا ❀	فَتَجْرِي بِتَحْقِيقٍ وَنُورٍ وَمَحَبَّةٍ
وَسَرَحْتُ طَرْفِي فِي الْمَعَانِي تَنْزُّهَا ❀	وَحُضْتُ بِحَارِ الْكَشْفِ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ

فَارْفَعْ قَدْرُ ثُمَّ اخْفِضْ مَنْصِبًا ❀ لِارْفَعْ مَقْدَارٍ وَأَخْفِضْ رُتْبَتِي⁽¹⁹⁾

لقد جلت النزعة الأخلاقية الدينية للشاعر في الحب الإلهي والانصراف إليه بالحس والقلب والفكر والعقل والدين معا، ويزكي مذهب الشاعر هذا قوله نثرا: «طفت مشارق الأرض ومغاربها في طلب الحق واستعملت جميع الأسباب المذكورة في معالجة النفس وتحليت بقدر الإمكان في مرضاة الحق فما طلبت قرب الحق بشيء إلا كان مبعدي ولا في معالجة النفس بشيء إلا كان لها معينا ولا توجهت لرضاء الحق إلا كان الله عز وجل في الجميع....»⁽²⁰⁾، ويستند البرنسي في إثبات منزعه الخلقي الديني إلى تأثيره بمن سبقه من الشعراء، شاعر يصف الحب الإلهي «... ولما يرد من الله تعالى أمرا ونهيا وخيرا وقهرا وعبودية لا تصحبها رؤية، ورؤية لا يصحبها اعتماد واتساعا لا يصحبه ضيق وضيقا لا يصحبه اتساع إلا كنت ممتثلا»، في ذلك قول القائل:

قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ وَصْلَكَ يُشْتَرَى ❀ بِنَفَائِسِ الْأَمْوَالِ وَالزَّبَاحِ
وظَنَنْتُ جَهْلًا أَنَّ حُبَّكَ هَيِّنٌ ❀ تَفَنَّى عَلَيْهِ كَرَائِمُ الزَّبَاحِ
حَتَّى رَأَيْتُكَ تَجْتَبِي وَتُخْصُ ❀ مَنْ تَخْتَارُهُ بِلَطَائِفِ الْأَمْنَحِ
فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَا تُنَالُ بِحِيلَةٍ ❀ فَلَوَيْتُ رَأْسِي تَحْتَ طَيِّ جَنَاحِ
وَجَعَلْتُ فِي عَشِّ الْغَرَامِ إِقَامَتِي ❀ فِيهِ غُدُوي دَائِمًا وَرَوَاحِ⁽²¹⁾

وأما الصدق عند الغزالي فمراتب متعلقة بالقول والنية والإرادة والعزم والوفاء به، والصدق في العمل وفي التدين: يقول في معناه وهو يقتبس من قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ ويقول عليه السلام: «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة، وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا». ويكفي في فضيلة الصدق أن الله تعالى وصف الأنبياء في معرض المدح والثناء فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ وقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ وقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾⁽²²⁾. وأما الصبر عند الغزالي خصلة يشرف صاحبها بمعان خلقية هي العفة والبطر والشجاعة والحلم وكتمان السر والزهد والقناعة، يقول فيما هو من معناه: «والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة، والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية، والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهو»⁽²³⁾.

4-2. التوكل:

ومن الشعراء الذين عرفوا بمنزع خلقي يسمه الزهد في الدنيا والتصوف تنمة له، الشاعر أحمد بن عبد الله المناوفي (ت. 930هـ): «قرأ على أحمد بن محمد بن زكري التلمساني أخذ عنه الأصول والمنطق والمعاني والبيان والعربية وكان ماهرا فيها والحساب، وكان شاعرا ماهرا في عروض الشعر وكان معاصر الإمام محمد بن غازي وكان زاهدا في الدنيا لا يخاف في الله لومة لائم»⁽²⁴⁾، وعرف كغيره بتأليفه وشروحه،

وعنه أخذ الكثير من العلماء والشعراء في عصره، وله ما يدل على نزعة خلقية في الشعر يومئ فيها إلى القناعة ويربطها بقسم الله، ويسلم أمره لله صاحب الشأن والعلم بأسباب صلاح الفتى وخبله، ويؤكد عن يقين لا شك فيه أن التدلل والخنوع لله لا غير، فهو تعالى المذل والمعز للخلق، وهومن يترجاه الشاعر ويطمع فيه وفي كرمه وجوده، ولعله يفوز بالدار الدنيا والدار الآخرة وهو يلوذ بمنجاة الله تعالى، وفي ما ذهب إليه المناوفاً في تعبير عن نزعة أخلاقية ودينية يستثمر فيها خلافاً من مثل القناعة والصلاح مرتبطين بالإنسان، والعزة والنوال والتشريف صفات تنزه الله بها عن مخلوقاته، ففي ذلك يقول:

رَضَيْتُ بِقَسَمِ اللَّهِ ثُمَّ اخْتِيَارِهِ	✿	وَجَنَّبْتُ نَفْسِي السَّعْيَ حَوْلَ اغْتِيَالِهِ
وَفَوَّضْتُ أَمْرِي لِلَّذِي هُوَ عَالِمٌ	✿	بِأَسْبَابِ إِصْلَاحِ الْفَتَى وَاخْتِيَالِهِ
يَقِينِي يَقِينِي أَنْ لَا أَرَى مُتَذَلِّلاً	✿	لِغَيْرِ عَزِيزٍ وَاحِدٍ فِي جَلَالِهِ
وَإِنِّي لَأَسْتَعِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَرَى	✿	لُبَّابَ سِوَاهِ سَائِلاً لِنَوَالِهِ
أَيَا طَالِبِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَى كَلِمَتَا	✿	عَلَيْكَ بَبَابِ اللَّهِ لُذْ بِجِبَالِهِ ⁽²⁵⁾

ويعد التوكل عند الغزالي صفة مقترنة بالتوحد والتفرغ للعبادة كثرة، والصبر على الجوع والعطش، والافتناع أن الموت رزق من جملة الأرزاق، وينهى عن السؤال والكسب معا إلا للضرورة، قال: «...وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعاً عن الأسباب، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة، والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادراً، وملازمة البلاد والأمصار وملازمة البوادي التي لا تخلو عن الحشيش وما يجري مجراه. فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى»⁽²⁶⁾، فيتضح لنا من هذا القول أن الغزالي يربط التوكل بالعلم لا بالعمل، أي إن العلم بأسباب التوكل هو الذي تصدر عنه السلوكات والأفعال، بحيث الجهل لا يعين صاحبه على التوكل لجهله أسباب العمل الصادرة عنه، ويتعلق العلم بالإخلاص فيه عند الغزالي.

2-5. الإخلاص:

وزال محمد الشاطبي ينزع منزعا أخلاقيا في شعره حتى يضفي عليه عاطفة دينية، يدعو من خلالها إلى استقامة النفس واعتدالها وصلاحها، إذ لا بد أن تنحو منحى الرشاد والرأي السديد الذي يرفع صاحبه درجات في ميزان الصلاح والمثوبة عند ربه، كما يجب على الفرد أن يكون حليماً أبداً في حياته، يأخذ بمن يخلص له عن محبة في النصيحة والوصية؛ قال الشاعر في الزهد أيضاً:

سَلَكَ أَبَا عَبْدَ اللَّهِ وَابْنَ صَالِحٍ	✿	سَبِيلًا فَكَمْ يُفْضِي قَوِيماً؟ لِصَالِحٍ
يُرَجِّحُ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانُكُمْ غَدًا	✿	إِذَا لَمْ يَكُنْ مِيزَانُ قَوْمٍ بِرَاجِحٍ
فَإِيَّاهُ فَاسْلُكْ طَوْلَ عُمْرِكَ وَاسْتَمِعْ	✿	وَصَايَةَ مُحِبِّ مُخْلِصٍ لَكَ نَاصِحٍ ⁽²⁷⁾

وإن الشيم الخلقية التي أشار إليها البرنسي في أشعاره السابقة، تتصل اتصالاً وثيقاً بنزعتها في الحب، والحب في نظره لا يصدر منه تجاه البشر وإنما هو الحب الإلهي الذي تنطوي تحته المعاني الخلقية السامية جلها فيربط هذه الخصلة بذاته في علاقتها بالله وحب الرسول ﷺ، واجتماع الأحبة إليه في حضرة القدس الشريف، ولذلك يقول:

وَادْخُلْهُ فِي حَرْبِ أَهْلِ مَوَدَّتِي	❁	يُشَاهِدُ أَسْرَاراً بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ
يَهْيِمُ بِحُبِّ اللَّهِ مَا دَامَ رُوحُهُ	❁	بِقَيْدِ الْحَيَاةِ لَا انْخِرَامِ الْمَيِّتَةِ
فَسَبْعِينَ أَلْفَ سِرٍّ خُضَّتْهَا كُلُّهَا	❁	وَفِي حَضْرَةِ الْقُدُسِ اجْتِمَاعِ الْأَحْبَةِ
فَأَمْرِي بِأَمْرِ اللَّهِ فِيمَا أَقُولُهُ	❁	وَأَلْحَظُ بِإِذْنِ اللَّهِ كُلَّ أَحَبَّتِي
وَإِنِّي بِحُبِّ اللَّهِ لَا زِلْتُ هَائِمًا	❁	فَمَنْ شَاهَدَ الْمَعْنَى يَمُوتُ بِسُرْعَةٍ
كَذَاكَ بِحُبِّ خَيْرِ خَلْقِ عَبِيدِهِ	❁	مُحَمَّدٍ الْمُخْتَارِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ
عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ ثُمَّ سَلَامُهُ	❁	وَأَصْحَابُهُ وَالْأُلَى فِي كُلِّ لَحْظَةٍ
وَصَلَّى إِلَهَ الْعَالَمِينَ وَسَلَّمَنُ	❁	عَلَى أَحْمَدِ الْمُبْعُوثِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ ⁽²⁸⁾

والإخلاص منه هو العلم من أجل العمل الذي ينصر الدين الحق، وليس الإخلاص بمنزلة منه إذا لم يخلص العالم في عمله، ولا الواعظ بنصيحته، فكانا كلاهما يرغبان عن شهرة ورياء، ويضيق مفهوم الإخلاص لدى الغزالي في المنحى الديني، لأنه أول ما استهل به دراسة هذه القضية في إحيائه، قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

3. الخاتمة:

والذي نخلص إليه في دراسة الموضوع ما تكاد تكتمل عنده النظرية الخلقية بما ذهب إليه الغزالي وهو أن "... أشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة هم العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستلاء، والفرح بالاتباع. والشيطان يلبس عليهم ذاك ويقول: غرضكم نشر دين الله، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله. وترى الواعظ يمين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين. ويفرح بقبول الناس قوله، وإقبالهم عليه، وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين. ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه، ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه هذا الهم بغيره. ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس إلى غيرك. إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود. ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً وأعود إليه في الآخرة"⁽²⁹⁾.

وقد نخلص في دراسة موضوعنا بعامة إلى التأكيد على أن موضوع الأخلاق والفضيلة في الشعر الزيناني تعلق بالأخلاق لذاتها، كما تعلق بمحيطها الإنساني ونوازعه المختلفة في الحياة، ونختم مقالنا بالإشارة إلى أنه قد سبقنا إلى إثارة الموضوع بكرة في دراسة شعره زمان دولة بني زيان.

الهوامش:

- (1) إحياء علوم الدين، أبي حامد محمد الغزالي، (ج.3)، (د.ت)، مكتبة عبد الوكيل الدروبي، درويشية- دمشق، ص.56.
- (2) الأخلاق عند الغزالي، زكي مبارك، (1924م)، دار الكتاب العربي، مصر، ص.113.
- (3) المرجع نفسه، ص.114.
- (4) المرجع نفسه، ص.89.
- (5) المرجع نفسه، ص.96.
- (6) المرجع نفسه، ص.94.
- (7) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، محمد بن مريم التلمساني، (1986م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص.60.
- (8) المرجع نفسه، ص.63.
- (9) نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، محمد بن عبد الله التنسي، تحقيق: محمود بوعياض، (1405هـ/1985م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص.176.
- (10) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، محمد بن مريم التلمساني، (1326هـ/1908م)، المطبعة الثعالبية، الجزائر، ص.225.
- (11) بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، يحيى بن خلدون، (ج.1)، (1332هـ/1913م)، الجزائر، ص.52.
- (12) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، أحمد الغبريني، تحقيق: أحمد بونار، (1389هـ/1970م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص.97.
- (13) البستان، محمد بن مريم التلمساني، (1326هـ/1908م)، ص.61.
- (14) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، (مج.2)، (ط.1)، (1394هـ/1974م)، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ص.204.
- (15) المرجع نفسه، ص.205.
- (16) المرجع نفسه، ص.148.
- (17) البستان، محمد بن مريم التلمساني، (1326هـ/1908م)، ص.47-48.
- (18) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (19) المرجع نفسه، ص.209.
- (20) المرجع نفسه، ص.48.
- (21) المرجع نفسه، ص.50.
- (22) الأخلاق عند الغزالي، زكي مبارك، ص.130-131.
- (23) المرجع نفسه، ص.132.
- (24) المرجع نفسه، ص.8-9.
- (25) البستان، محمد بن مريم التلمساني، (1326هـ/1908م)، ص.17.
- (26) الأخلاق عند الغزالي، زكي مبارك، ص.142.
- (27) البستان، محمد بن مريم التلمساني، (1326هـ/1908م)، ص.105.

(28) المرجع نفسه، ص. 49-50.

(29) الأخلاق عند الغزالي، زكي مبارك، ص. 149.